مجلة انساق
للنشر العلمي

مجلة انساق للنشر العلمي

الإصدار الرابع
المجلد (٢) العدد (٣)
٢٠٢٦ (١٦-١)

# تمثلات التمييز الاجتماعي في الثيمة السردية في روايات عبد الستار ناصر وهدية حسين بعد ٢٠٠٣ (نصوص مختارة)

**م.م/ فاطمة باسم عبد الحسن**
( جامعة الفراهيدي _ العراق )
تاريخ النشر: نُشر إلكترونياً بتاريخ ٢٠ يوليو ٢٠٢٦ م

**الملخص :**

تُعد الثيمة السردية أحد أهم أجزاء النص السردي، والتي تعني اصطلاحيًا، "موضوعًا أو فكرةً رئيسة ومحورية، تتكرر أو تتخلل عملاً أدبياً أو فنياً." (نيكولاس مارش، كيف ندرس الأدب، ص١٧).
والتي تعتمد عليها بقية الأحداث، فلا تكون الثيمة منعزلة عن هذا البناء، لأنها تمثل الفكرة والرسالة الرئيسة التي يريد الكاتب نقلها إلى المتلقين، لطرح قضية ما، أو للمساهمة في تقديم الحلول لها، وهي الجو العام الذي يكون ناتجًا عن الترابط الفكري للأحداث، وعبد الستار ناصر اهتم بهذا الشأن في البناء الروائي والقصصي، لطرح أهم القضايا الاجتماعية ومعالجتها، وسنركز في دراستنا هذهِ على الحديث عن أهم المشكلات المرتبطة بأساليب التمييز الاجتماعي التي تعاني منها النساء.

**الكلمات المفتاحية:**

الثيمة السردية، التمييز الاجتماعي، عبد الستار ناصر، هدية حسين، الرواية العراقية.

**Abstract:**

The narrative theme constitutes a pivotal element of storytelling, conceptually defined as the core, recurring idea that permeates a literary or artistic work. Far from being isolated, the theme serves as the structural anchor upon which subsequent events unfold, embodying the central message and vision the author intends to convey. Through it, writers either critique a specific socio-political issue or contribute prospective solutions, fostering the overarching conceptual atmosphere born from the logical progression of events.

Abdul Sattar Nasser and Hadiya Hussein heavily leveraged this thematic architecture within their novelistic and fictional frameworks to interrogate and address pressing social issues. Accordingly, this study meticulously examines the manifestations of social discrimination and the profound challenges confronting women as depicted in their literary works.

**Keywords:**

Narrative Theme, Social Discrimination, Abdul Sattar Nasser, Hadiya Hussein, Iraqi Novel.

**المقدمة:**

في هذهِ الدراسة سنعنى بالحديث عن الثيمات التي وظفها الكاتب في الروايات، وارتباطها بالتمييز الاجتماعي المتشعب في أفكار الكُتّاب، نتيجة البيئة المحيطة التي أضافت بصمتها في أسلوب الكتابة وطريقة التوظيف.

غالبًا ما تكون الفكرة المراد إيصالها للقُراء، نابعة من واقع الفرد العراقي القائم على العديد من الأعراف الاجتماعية التمييزية، وهو ما نركز فيه على الثيمات الأساس وارتباطها بالرؤية التمييزية، في روايات عبد الستار ناصر.

**التمييز الاجتماعي والأدب**

لفهم علاقة التمييز الاجتماعي بالأدب سيكون مدخلنا عن طريق معرفة علاقة الأدب بالنسوية، وهي في الأساس حركة تدعو الى حصول النساء على حقوقهن على كافة الأصعدة؛ الاجتماعية والثقافية والسياسية.

سرعان ما ظهرت فكرة أوسع عن حقوق النساء، فالنسوية ليست حكرًا على النساء، إنما تشمل من يؤيد أفكار النسوية، فالنسوية من منظور الرجال هي ليست إيمانا يجب تحصينه ولكنها مطالبة بواقع يجب دراسته (ينظر: جانيت تود، التاريخ الأدبي النسوي، ص١٤٦).

أما علاقة النسوية بالأدب، فالأدب مثلما هو متعارف عليه يتأثر تأثرًا مباشرًا بالثقافة المحيطة، فالمرأة في المجتمع تعاني من العديد من المشاكل التي تشكل عائقًا أمام طموحاتها

وقد تناولت الكثير من القاصات والروائيات العربيات العديد من القضايا التي تخص النساء في العالم العربي، ولا سيما قضية الطلاق، التي يُعطى الحق فيها للرجل، بالمقابل تُهمش المرأة في المجتمع، حيث يكون التركيز على الذكور لدعمهم للوصول إلى غاياتهم، إذ أنه في "النصوص الأدبية التي تكون فيها الشخصية الرئيسية ذكرًا، غالبًا ما تبنى الحبكة كرحلة تنقيب تتابع انخراط البطل فى العالم بإيجابية، سواء انتهت مغامرته بالنجاح أو الفشل والموت" (بام موريس، الأدب والنسوية، ص٧٠).

الكتابة تجربة إنسانية عامة تعكس تجربة الفرد الخاصة، لكونها نابعة من الواقع الذي يعيشهُ الفرد، وغالبًا ما تكون مُعبرة عن الواقع الذي تعيش فيه، فتتطرق المرأة الكاتبة الى القضايا التي تعاني منها النساء" إذ كثيرًا ما تدخل الكاتبات العالم الاجتماعي في قصصهن، وهذا الاهتمام بالواقع الاجتماعي أقل وضوحاً في قصص الرجال"،( ماري تابلوت، اللغة والجندر، ص٧٢).

وهذا الاهتمام بالواقع الاجتماعي للمرأة ينتج عما عانتهُ النساء في المجتمع من ظلم وإضطهاد، فوجدنَّ الأدب مساحة للتعبير والمطالبة بالحقوق.

تتمثل التمييزات الاجتماعية في الأدب في بعض الأشياء التي تبرز بشكل كبير عند الكتابة، مثلًا اللغة وطريقة استخدام الألفاظ وانتقائها في الكتابة، "فلا يمكن للمرأة أن تأخذ حصتها من الكتابة إلا بعد أن تحصل على حقها في اللغة، واللغة ليست سبيلها الى الكتابة الأدبية فحسب بل سبيلها الى ميدان العلم بأشمله،" (جمال جاسم أمين، كتابة الجسد في المسكوت عنه، ص١٥).

ففي بعض النصوص الأدبية نلاحظ طريقة استخدام الضمائر فيها تمييز اجتماعي، مثلًا يُستخدم الضمير المذكر للدلالة على الذكر والأنثى، فتفقد المرأة حقها في اللغة، فاللغة كما هو معروف تساعد على "تشكيل حدود واقعنا، إنها وسيلتنا لترتيب العالم وتصنيفه والتلاعب به، ومن خلالها نصبح أعضاء في مجتمع بشري، ويصبح العالم مفهوماً وذا مغزى، ونخلق العالم الذي نحيا فيه. (ينظر: ماري تابلوت، اللغة والجندر، ص٥٩)، فالمرأة عند إثبات هويتها في اللغة تحصل على جزء من حقها في الكتابة الأدبية.

ومن وسائل للتمييز الاجتماعي في الأدب هي الثيمات السردية التي يستخدمها الكاتب؛ ومنها طريقة عرض الشخصيات في الرواية من حيث المكانة والدور الاجتماعي، فتُقدم شخصية المرأة حسب دورها في المجتمع، فتكون ربة منزل، أو تعمل في مناصب أدنى من الرجل، أو يكون دورها ثانويًا، فتأخذ صورة المرأة الهامش، حتى في طريقة تقديمها في القصة، إذ غالبًا ما يكون الراوي "هو البطل ودائمًا رجل، وحتى دور البطولة في كتابات النساء فيكون الأبطال أشخاصًا آخرين من الجنسين، أما من ناحية القصص فتمثيل الواقع عند الرجال يكون فرديًا، وعند النساء اجتماعيًا حتى في النصوص الأدبية يكون للرجال المهارة وسعة الحيلة والبطولة، اما النساء فتتملكهن الحيرة والخوف،" (ينظر: ماري تابلوت، اللغة والجندر، ص٧٣)، فتختلف طريقة تعبير المرأة عن الرجل في الواقع، وهذا ينعكس في الأدب، فتظهر المرأة في شخصيات هامشية تتبع الرجل في حياتها، فالكُتّاب كثيرًا ما تكون أفكارهم نابعة من عادات المجتمع وتقاليده.

أما في الرواية العراقية تنعكس أساليب التمييز الاجتماعي في كافة مجالات الحياة، ومنها مجال الأدب فثمة ارتباط وثيق بين الأدب وبين ثقافة المجتمعات؛ بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق الأفكار التي يعكسها المجتمع على الكاتب فينتج أدبًا نابعًا من ثقافة البيئة التي يعيش فيها، وعليه فإنَّ الثقافة تمثل الحجر الأساس الذي تترسخ عليه الأفكار المنعكسة في الأدب، فالتمييز ما دام قائمًا في المجتمعات سنجد له خيوطًا في الأدب، إما عن طريق تقديم الشخصيات للقارئ أو من خلال اللغة المستخدمة في الكتابة، والتي تعتمد على استخدام الخطاب المذكر للتعبير عن كلا الجنسين، "وليس تأكيد اللغويين القدامى على أن المذكر هو الأصل والمؤنث هو الفرع، في نظر عدد من النسويات والدارسين المناصرين للفكر النسوي، إلا حجة على أن اللغة هي بناء اجتماعي يملك السيطرة على كيفية التفكر بالأشياء، وهي أيضًا في علاقة متينة ببناء السلطة، فمن ملك ناصية الكلم ملك ناصية الوجود وحاز السلطة." (مؤلف جماعي تحت إشراف أمل قرامي، النساء والمعرفة والسلطة، ص٢٥).

وظفت الرواية العراقية العديد من التقنيات السردية لرسم صورة الحياة الاجتماعية، "فمنذ سقوط النظام الديكتاتوري عام ٢٠٠٣ وحتى يومنا هذا، ظهر عدد كبير من الروايات العراقية التي أخذت على عاتقها تسجيل الأحداث والمتغيرات التي طرأت على الواقع، وأغلب هذه الأعمال تقوم على توثيق الحروب والموت المجاني والسجون والزنزانات والخوف ومصادرة كرامة الانسان وحريته." (راما عبد الجليل راضي، المفارقة في الرواية العراقية المعاصرة، ص١٥).

فالنسوية في الرواية العراقية هي خطاب يناهض أساليب التمييز التي انتقلت من الحياة الواقعية إلى النصوص الأدبية، حيث تماهت الأفكار النسوية مع الأفكار الرئيسة التي تقوم عليها الروايات، وقد "اضطلعت الرواية بمهام مختلفة ومتعددة من بينها؛ مهمة لفت النظر إلى معاناة المرأة، والدعوة إلى حريتها، والاهتمام بموقعها في المجتمع الذي يضطهدها ويصادر حقوقها بمسؤولية، إذ قد سخر الروائيون مواهبهم الأدبية في خدمة قضيتها، وكرسوا

جهودهم لنصرتها، فكان أن صار هذا الفن الإبداعي الأصيل، في نماذجه الراقية، منبراً مرموقاً للتعبير عن قضايا الإنسان العامة فرداً وجماعة، ومنها قضية المرأة." ( محمد ياسين مهدي الخفاجي، تمثلات المرأة في الرواية العراقية والإيرانية، ص١٨).

من أهم الأهداف التي تسعى إليها النسوية، هي تمكين المرأة في المجتمع على كافة الأصعدة، حيث ترسخت هذهِ الفكرة بعد انتشار بعض مبادئ النسوية في المجتمع العراقي.

تُعد الرواية العراقية مرآة للحياة الاجتماعية، لما فيها من تقنيات تصور الشخصيات بصورتها الواقعية، لذا فإن صورة المرأة في الرواية هي نتاج لثقافة البيئة المحيطة بالكاتب، وهي بمثابة الأيقونة التي تدور حولها شخصيات الرواية، مهما كانت بساطة دورها، فهي تمثل المقياس الذي يبين ثقافة المجتمع وتطوره في طريقة تعامله معها، فصورتها في الرواية تمثل نتاج الأعراف الثقافية للبيئة التي ينتمي إليها كاتب الرواية، فتختلف بذلك صورة المرأة حسب اختلاف المجتمعات.

تُستخدم المرأة في الروايات لتعبر عن أيدلوجية الكاتب وطرحه للموضوعات المراد إيصالها للقارئ، فتتعدد صورتها في الرواية تبعًا لاختلاف الموضوعات، فنجد المرأة المضحية المتمثلة غالبًا بشخصية الأم، والمرأة المضطهدة التي تحاول الخروج من دائرة التنميط الاجتماعي، وكذلك المرأة اللعوب المتخلية عن قيم المجتمع ومبادئهِ.

تختلف صورة المرأة في الواقع وفي الروايات، وهي "مثالية في عيون الرّجال عندما لا تتعدى حدود الفضاء، ولا تتدخل في الفضاء العام، وهي مثالية عندما لا تكون مواطنة، أي عندما تكون غائبة وغير مشاركة في الشأن العام، وهي مثالية عندما تعترف بسلطة الرجل" ( بورغدة وحيدة،المرأة العربية من العنف والتمييز إلى المشاركة السياسية، ص٤٧).

أما في عيون المرأة المنمطة فهي "لا تتكلّم، ولا تقيّم دورها ومكانتها إلا بالاستناد إلى معايير ذكورية مهيمنة، فهي تنتقص حقها وذاتها من دون أن تعلم، ومن دون أن يتاح لها في ذلك الخيار" (بورغدة وحيدة،المرأة العربية من العنف والتمييز إلى المشاركة السياسية، ص٤٨).

والتي تختلف عن فئة النساء الحالمات اللواتي يصورن المرأة على إنها "صورة مغايرة للصورة التقليديّة المُهيمنة للمرأة في الساحة العامة، فهذه الفئة فئة لامبالية ومتمرّدة ورافضة للرؤى التقليدية." (بورغدة وحيدة،المرأة العربية من العنف والتمييز إلى المشاركة السياسية، ص٤٩)، فنجد هذا التنوع في صور النساء في المجتمع، حاضرًا في الروايات العراقية، حيث كانت صورة المرأة والرجل في كل من روايات عبد الستار ناصر وهدية حسين، ناتجة من الواقع الاجتماعي الذي خرجا منه كلا من الكاتبين، والتي تنص على أن المرأة في المجتمع العراقي تكون خاضعة لهيمنة الرجل.

**تمثلات التمييز الاجتماعي في الثيمة السردية، في روايات عبد الستار ناصر وهدية حسين:**

في رواية (حمار على جبل)، وهي من أوائل الروايات التي كتبها عبد الستار ناصر، بعد سقوط النظام، وبعد أن تحرر قلم الكُتّاب من قيود السلطة، نتلمس فيها بصمة في نقل صورة الحيا في تلك الحقبة، سلط عبد الستار ناصر الضوء فيها على المعاناة التي يواجهها الإنسان العراقي النزيه المحافظ على قيمه ومبادئه، على الرغم من الضغوطات المحيطة به، فنزاهة هذا الإنسان عرضته للعديد من الصعوبات والتهديدات التي أودت بحياته إلى الهلاك.

وظف عبد الستار ناصر هذه المعاناة عن طريق شخصيات اتسمت بهذه الصفات، فشخصية عبد الرحمن الموظف البسيط كان خير مُمثل لهذهِ المعاناة، لما يمتلك من أمانة وإخلاص، ونزاهته كانت السبب الرئيس الذي أدى إلى نقله من دائرة إلى أخرى، بحجج واهية للتخلص من تدقيقه في ملفات الفساد، فبعد تنقلاته هذهِ استقر في المحكمة، وعمل مع قاضي يحمل نفس السمات التي يحملها عبد الرحمن.

أما بحر العلوم فمن الشخصيات التي فقدت حريتها في التعبير وإبداء الرأي في ظل ممارستها للمهنة، التي تستوجب العمل بحضور الضمير الذي يخضع الى المبادئ والقيم الإنسانية، للوصول إلى حكم عادل ينصف الإنسان في محنتهِ.

وقد كان وضع المحاكم في تلك الفترة مخجلًا لما يحمله هذا المكان من مكانة وقيمة في المجتمع، فبدلًا من أن يكون مكان عدلٍ كان مقبرةً لدفن أخطاء النظام، وأصبح مكانًا تُرتكب فيه أبشع الجرائم وتخفى فيه ملفات الفساد، فكانت المحكمة بمثابة شيطان أخرس، أخرسته دهاليز النظام، فما كان للإنسان إلا السكوت على الظلم، حفاظًا على ما تبقى من حياته، وحفاظًا على عائلته، بعد أن أصبحت ورقة الضغط التي يستخدمها رجال السلطة ضد من يحاول أن يقف بوجههها، فكانت هذه الحجة هي الغطاء الذي تستخدمه الحكومة لإخفاء جرائمها، وبعد لقاء عبد الرحمن بشخصية بحر العلوم اتضح كيف للإنسان أن يفقد الأمان والطمأنينة في ظل تلك الممارسات القمعية، كيف للإنسان أن يفقد حريته ويعتبرها ثمنًا لبقائه على قيد الحياة، وكأن مسألة الموت والحياة بيد من تسلم رأس السلطة.

في ظل هذه الأحداث كان الهدف الرئيس من هذه الرواية هو فكرة الثمن الذي يدفعه الإنسان مقابل حريته، كان هذا المحور الأهم وهو الذي تدور حوله أحداث الرواية، فصور عبد الستار ناصر هذه الفكرة كونه كاتبًا مخضرمًا كان شاهدًا على الأحداث قبل سقوط النظام وبعده.

فشخصية عبد الرحمن في بداية الرواية كان مجرد موظف بسيط يُنقل بين دوائر الدولة بغية التخلص من نزاهته في العمل، حيث كان موظفًا لا يناسب طريقة سير العمل في تلك الفترة، ثم كانت نقطة التحول في حياة هذا الموظف البسيط هو بعد اقترانه بعصماء، وبعد مقتل والدها، حيث واجه العديد من المصاعب، بعد أن أصبحت عائلته هي ورقة الضغط التي استغلتها السلطة لضمان سكوته، فكانت عصماء ضحية باعتبارها النقطة الأضعف في حياة عبد الرحمن.

واجهت عصماء العديد من الممارسات التي حولتها إلى مجرد حطام وأدت بها في نهاية المطاف إلى الموت، بعد أن تعرضت إلى الخطف والتعذيب، في ظل عجز زوجها عن انقاذها بعد أن وقعت بين أنياب رجال الأمن، فحالها لا يختلف عن حال المرأة العراقية في تلك الفترة، وما تتعرض له من إذلال ومهانة باعتبارها الوسيلة للوصول إلى غاياتهم.

**"سبعة أيام وعصماء في غياهب الجب، ما من أحد يرمي إليها حبل النجاة حتى تخرج من ذلك السعير"**

حيث تتنوع أنماط اضطهاد المرأة في المجتمع الذي تترسخ فيه في أساليب التمييز، والتي تقلل من قيمة المرأة مقابل إعلاء قيمة الذكور، فكانت المرأة العراقية في زمن النظام البائد تُفرض عليها العديد من القيود التي

تمنعها من ممارسة حياتها بالشكل الصحيح والآمن، وقد جسد الكاتب هذه الجزئية بشخصية عصماء عندما منعت من اكمال دراستها في كلية الفنون، لأن الجامعات في تلك الفترة أصبحت مسرحًا لاختيار الفتيات والتحرش بهنَّ من قبل كبار السلطة.

**"لقد منعت ابنتي عصماء من الذهاب إلى الجامعة، سمعت أنهم مازالوا يصطادون البنات الحسناوات في كلية الفنون."**

فيتحول هذا التمايز من مجرد عادة من عادات النظام إلى نقطة استغلال وتعدٍ على حقوق النساء، فشخصية عصماء في الرواية، على الرغم من أن قضيتها هي المحور الرئيس فيها والتي تهدف إلى تسليط الضوء على هذه الشريحة المظلومة في المجتمع، إلا أنها تجسدت في الرواية كوسيلة يستخدمها رجال الأمن لإذلال الرجال من عائلتها، وإلى جانب هذهِ استخدمت ضدها وضد نساء الحي، العديد من الممارسات التمييزية التي تضطهد المرأة وتمنعها من ممارسة حياتها.

أما (على فراش الموز) فأخذت جوًا آخر يختلف عن بقية روايات عبد الستار ناصر، اذ تجردت الأحداث في بداية الرواية من الوضع السياسي والاقتصادي لِتُسلط الضوء على الذات الإنسانية بعيدًا عن المثالية، فعمل الكاتب على إظهار الشخصيات بالوجه الذي يكون عليه الإنسان عندما تفقد الأنا العليا سيطرتها عليه لتسلمه إلى ذاته وإلى أهوائه، فشخصية رواية رشدي مثلت خروج الإنسان عن القيود المجتمعية التي غالبًا ما تكون لتنظيم حياة الفرد في البيئة التي يعيش فيها، فرواية رشدي شاب طائش ابتعد عن أهله وأصدقائه وترك بلده وهاجر إلى العديد من البلدان ليتجول بينها، منها موانئ بوخارست وروما ومدريد وغيرها، ليتحرر من تلك القيود، ويمارس هواياته بحرية تامة، فجعل من النساء هواية ليتنقل بين هذه وتلك، ولينزلق على فراش الموز بين ملذاته وأهوائه، إلى أن التقى بكاثي التي اشترته بمالها وجمالها، فيعود منها خائبًا ويفكر في الاستقرار ليستعيد جزءًا من كرامته برجوعه إلى أهله والى بلده، لكنه يعود إلى بلده بكارثة اعتقاله بعد نشر قصته من دون علمه والتي تحمل عنوان "سقوط الرايخ الرابع"، التي كتبها ضد النظام، وليواجه أشد أنواع التعذيب في السجون العراقية، ويخرج منها محطمًا ويعود إلى تنقلاته بين البلدان تاركا وراءه آلامه وذكرياته في بغداد.

فالفكرة الرئيسة التي تدور حولها أحداث الرواية، هي مسألة الحرية التي يفتقدها الانسان العراقي في بلدهِ، والتي ترسخ في الانسان فكرة الهجرة بعيدًا عن بلده، بحثًا عن الانفتاح والتحرر الذي تشهده بلدان العالم الغربي، التي تتجرد من القوانين الاجتماعية التي تعتمد على الدين وعلى الأعراف الاجتماعية المتوارثة، فبعد التحرر تصبح الحياة الاجتماعية منفتحة تسمح بما هو محظور في المجتمعات الأخرى، التي تكون مبنية على أُسس التمييز الاجتماعي بين الرجال والنساء، ففي هذهِ الفكرة رسم عبد الستار ناصر صورة الحياة بعد التحرر من أساليب التمييز ضد المرأة، فبين الجانب الإيجابي الذي يضمن للنساء الأمان والحرية، وبين الجانب السلبي بالتشتت الذي تكون عليه المجتمعات بعد غياب عنصر التنظيم الذي يعود إلى عوامل عديدة منها الدين والثقافة.

وفي رواية (قشور الباذنجان) تدور الأحداث حول مجموعة أشخاص شهدوا وعانوا من الاستهزاء بقيمة الانسان قبل سقوط النظام البائد، في ظل عمليات الخطف والقتل والتعذيب التي طالت العديد من الشخصيات، حيث ركز عبد الستار ناصر على الظلم الذي يحدث في البلاد، على الرغم من حالة الهدوء الظاهرة، فجاءت ثيمة هذهِ الرواية عبارة عن حالة انعدام الشعور بالأمان على الرغم من استقرار المواطن في كنف موطنه، فقد عانى العراقيون من هذه المأساة نتيجة حالة الخوف والرعب من اعتقالهم وتعذيبهم في السجون التي ذهب ضحيتها العديد من الأبرياء.

خوف وذعر ورعب، هكذا صور عبد الستار ناصر العاصمة بغداد قبل السقوط، بدأ من شخصية ياسر عبد الواحد الذي، بسبب تهمة باطلة نُسبت إليه، دخل السجن وشهد التعذيب الذي يصل إلى حد الاغتصاب والقتل، فتعرض للكثير من الأزمات النفسية التي جعلته منطويًا على نفسه نتيجة ما شهده داخل السجن من تفنن في أساليب تعذيب الإنسان حالهُ لا يختلف عن الأشخاص الذين سُجنوا ظُلمًا في المجتمع العراقي.

صور لنا الكاتب هذه التفاصيل بصورة تفصيلية لتحقيق الغاية التي يطمح اليها ألا وهي تصوير الأحداث بوجهها الحقيقي آنذاك.

**" يضربني أحدهم دونما سبب، أحمي رأسي ولا أعبأ ببقية أعضائي، المهم أن أسرع إلى غرفتي تحت الأرض قبل أن يهشمني بعصاه وهو يضحك مني،أتعثر في طريقي، وأسقط، أمشي مرعوباً ولا أعرف الطريق."**

عانت الشخصيات في الرواية من تشتت وبعثرة فكرية ونفسية، فشخصية ياسر ضاعت بين إنسان صادق مع نفسه، يحاسب نفسه على أخطائه وبين إنسان خائن منحط، خان صديقهُ المقرب مع زوجته أنيسة.

وشخصية سلافة أخت ياسر التي فقدت زوجها إبراهيم الطاهر في الحرب، كانت تعاني من خوف من فقدان الأشخاص نتيجة الأوضاع بعد قرارها بالعزوف عن الزواج بعد إبراهيم، تزوجت حيران صديق أخيها والمقرب إليه.

هذه الانتقالة في القرارات جاءت نتيجة تقلب في أفكارها بين البحث عن الاستقرار والأمان بعد فقدانه في وطنها، وبين وفائها لزوجها الأول، أخذت قرارها بالموافقة على الزواج من حيران والهروب معه إلى خارج البلاد بحثًا عن الأمان.

وشخصية الدوهان الذي كتب في دفتر اعترافاته عن الحيرة التي وقع فيها بين شخصيته الرحيمة وبين الضغوطات التي تعرض لها من قبل الجلادين في قعر السجون، والتي أدت به في نهاية المطاف إلى نزع الرحمة من قلبه وتحوله إلى وحش يتمتع بتعذيب الإنسان.

**"أعرف أنك ياسر عبد الواحد، وأعرف كم يوماً حجروك هناك في العتمة، أعرف كم مرة عذبوك، بل أعرف من كان يأتيك بالطعام ومن يأخذك إلى غرفة التحقيق ومن كان يضربك بالسياط حتى يسيل الدم من ساقيك، أعرف كل شيء ، لهذا جئتك نادماً أرجوك أن تغفر لي."**

عدم استقرار الشخصيات في الرواية ناتج من عدم استقرار الأمن في منطقة الأحداث فالرواية حدثت في بغداد في أواخر زمن النظام البائد صور الكاتب مشاهد الدم التي عمَّتْ أجواء المدينة، فكيف تستقر نفس الإنسان في ظروف دامية كالتي عاشتها العراق في تلك الفترة.

في الرواية مثل لنا الكاتب شخصية المرأة العراقية في ذلك الوقت وما تعانيه من خوف وفقد، شخصية سلافة كانت تحمل صورة المرأة بتحملها المسؤولية ومواجهتها للمصاعب من جهة، وخوفها من الفقدان من جهة أخرى، سُلافة التي عانت من التشتت والخوف في بيت أخيها ومن الذعر الذي أصابها عند رؤيتها لحالات الخطف والقتل في بغداد حالها لا يختلف عن حال المرأة العراقية في ذلك الوقت، وتسليط الضوء على هذه البقعة يأخذنا إلى صورة التمييز الاجتماعي، حيث يبين لنا معاناة المرأة في ظل عدم استقرار البلد، فسُلافة مثلت لنا حالة المرأة العراقية بعد انتهاء الحرب وما تعانيه بعد فقدان أشخاص مقربين لها، وكذلك حالها في ظل تدهور الأوضاع الذي يؤدي إلى هروبها إلى خارج البلاد.

**"بلد بلا ماء ولا كهرباء، بلا أمان ولا سلام، بلد لم يعد فيه حيران وما زال فيه الرعاع، الموت وحده من يتسلل نحو البيوت والأزقة والشوارع، صرتُ بعد موت حيران أشرب الخمرة حتى في ساعات النهار، أختي سلافة مركونة مع أحزانها في غرفتها المظلمة، أسدلت الستائر على حياتها."**

إلى جانب ثيمة الحزن والتشتت الذي تعيشه الشخصيات في الرواية، وظف عبد الستار ناصر بعض الشخصيات ليتبين لنا التمييز الاجتماعي بين الجنسين، فصور لنا فعل الخطيئة ونسبة تقبلها في المجتمع، لأن فعل الخطيئة يختلف حسب الجنس في المجتمعات العربية، فعندما تقوم النساء بعمل خطيئة ما، مخالفة للأعراف الاجتماعية والدينية، تتسلط الأضواء عليها للقصاص منها، فيما لو ارتكب الرجال أفعالًا تخالف عادات المجتمع وتقاليده، يتم التغاضي عنها، كما حدث في الرواية مع شخصية ياسر وصديقه حيران، اللذين عاشا حياة مليئة بالطيش واللهو مع النساء، فكانت صورتهم في الرواية شخصيات متحررة عانت من قسوة الحياة، فيما كانت شخصية أنيسة تعيش نفس حياة التحرر، إلا أنها صُنفت كامرأة لعوب تستحق أشد أنواع العقاب، بعد انحرافها عن النمط المعتاد للمرأة العراقية المحافظة.

كانت الثيمة العامة في الرواية هي ثيمة التشتت وانعدام الشعور بالأمان، فكانت هذهِ الثيمة منقسمة بين الجانب السياسي الذي يهدد حياة الجنسين، وبين الحياة الاجتماعية التي تنعدم فيها الحرية والشعور بالأمان، فكانت هذهِ الرواية تأخذ جانبين، حيث ظهر التمييز الاجتماعي في الجانب الاجتماعي كونه متعلقًا بحياة النساء، حيث وظف الكاتب أساليب التمييز الاجتماعي، وجعلها أداة من أدواته، ليبرز للقارئ هذهِ الثيمة.

وفي رواية (الشماعية) كانت هناك مشاهد قاسية من قعر سجون بغداد يصورها لنا القاص والروائي عبد الستار ناصر، تعذيب واغتصاب ومشاهد دموية يتعرض لها العديد من السجناء الأبرياء، أو ربما أشخاص دخلوا السجن بتهمة تصغرُ أمام حجم التعذيب والمهانة على يد أعنف الجلادين.

فترة عصيبة من تاريخ العراق فترة حكم النظام البائد، ينقلها الكاتب مشاهد تفضيلية ليوصف لنا القسوة التي كانت في نفوس من ينتمون إلى هذا النظام وهم يتجردون من أسمى صفات الإنسان، قلوب صلدة، منزوعة الرحمة، عبيد للسلطة والمال، يتعاملون مع الإنسان بطريقة وحشية، يبتكرون أنواعًا من التهم ليستعرضوا مهاراتهم في التعذيب والقتل.

هكذا صور لنا الساردون حقيقة المشاهد في قعر السجون، بطريقة السرد المتناوب، ففصل كل سارد حكايته مع السجون العراقية التي تنغمس في غياهب الظلمات.

وظف الكاتب هذه الشخصيات الحقيقية بأسماء وهمية حفاظًا على ما تبقى من كرامتهم، لينقل لنا الفكرة الأساسية من هذه الرواية، ألا وهي بخس كرامة الإنسان، بتعرضه لأشد أنواع الإهانات ولأشد أنواع التعذيب بكل أشكاله؛ من ضرب وشتم واغتصاب، لتجريد الإنسان من كرامته، وإحساسه بذاته.

نقل لنا هذه الثيمة على لسان الكثير من الشخصيات، منها شخصية أمين هاشم بيطار، أمين سر الحزب الشيوعي آنذاك، الذي أُرغِمَ على قول بيان ضد الحزب المنتمي إليه، والذي أدى به إلى السجون المنطوية تحت الأرض، التي تُستباح بها كرامة الإنسان بتجريده من اسمه أمين البيطار واستبداله بالحمار، وبتجريده من ذاته كإنسان بارغامه على تقليد صوت الحمار، وبتجريده من رجولته باغتصابه قبل الجلادين، وصعقه بموجات كهربائية في مستشفى الشماعية.

**"سأعترف بأنني نصف مجنون أو نصف عاقل، أدري بهذا وأحتاج إلى شخص واحد يؤمن بي ويفهم حقيقة وجداني ونوع حالتي التي انتهيت إليها، ربما أحتاج إلى ساعة واحدة أكون فيها أكثر صحواً حتى أقص لهم ما جرى هناك بين حبوب الهلوسة ونهيق الحمار ونباح الكلب وأسلاك الكهرباء والحقن التي تنهش لحمي في الليل والنهار."**

كل هذه المعاناة التي عاشها أمين البيطار ما هي إلا صورة مماثلة للمعاناة التي عاشها السجناء العراقيون طيلة سنوات الحكم الديكتاتوري، وكذلك حياته بعد خروجه من المعتقل بعد سنوات طوال، بعد أن أصبحت حالته النفسية والجسدية في حالة مزرية، لكنه حصل على مساعدة من جاره عبد العزيز، لينتشله الى بر الأمان، نقل عبد الستار ناصر هذه المعاناة بتفاصيلها للقارئ ليصور بها قساوة النظام البائد آنذاك.

وكذلك شخصية صفية عاشت حياة قاسية بعد انضمامها إلى عالم المجانين، على الرغم من سلامتها العقلية، حيث تعرضت للصعق بالموجات الكهربائية كبقية المرضى، ثم خرجت من هذا العالم بأعجوبة وهي بكامل قواها العقلية، وألتقت بعفراء صديقتها المقربة، شاهدت العالم خارج المُستشفى وعاشت مع ذكرياتها الحزينة حتى فقدت عقلها ورجعت إلى المستشفى فاقدة للعقل.

شَهَدتْ هذهِ الشخصية في المعتقل العديد من المشاهد الدموية التي تُفقدُ رباط الجأش، شاهدت أشد أنواع التعذيب التي تُرتكب بحق السجناء لأخذ اعترافاتٍ لتهم لم يرتكبوها، تعذيب يؤدي بهم الى الشماعية بغية الخلاص منهم، مثل الرائد محمود الكردي، وعبد الباري الملقب "أبو العصافير"، والشيخ سرحان مهاوش.

وعمار مظهر الشيخ من الشخصيات الرئيسة في الرواية لما لها من تأثير واضح في حبكة الرواية، فشخصيته جمعت بين جلاد شديد وبين شخص رحيم مرغم على العمل تحت سلطتهم، حفاظًا على حياته وحياة عائلته، فهذه الشخصية نجت بنفسها بعيدًا عن أنياب السلطة عند لجوئه إلى شمال البلاد مع زوجته عفراء.

**"تعلم عمار مظهر الشيخ لغة البلاد كما يتعلم الطفل كيف يقول (ماما)، بينما رمت عفراء نفسها في دراسة الحياة، في تلك البقاع النائية البعيدة عن هموم الماضي، وصارت تنطق مفردات البلاد بعشق ساعدها على التسوق وقراءة أخبار الدنيا."**

أما محمد جميل السويركي فكان فلسطيني الجنسية تزوج من ابنة عمه سامية، وسافرا إلى بغداد بدعم من رفيق الحزب مجيد السعدون، صائد الفرص والنساء، اختار سامية لجمالها من بين النساء، وأراد التخلص من زوجها بنصب مكيدة له، أدخلته إلى ظلمات السجون، حيث تعرضا للكثير من الإهانة والتحقير من دون سبب واضح، لفقوا لهم تهمة التجسس على السلطات للتخلص منهما.

فبالرجوع إلى كل هذهِ الأحداث، نجد أن التمييز الاجتماعي كان متسللًا إلى أغلب تفصيلات الرواية، فالشكل العام لها يرسم صورة السجون العراقية التي تضج بالشخصيات الذكور والتي تكون مرتبطة بالجهات العليا من الحكومة، والتي لا يكون للمرأة دور فيها، وكأن المناصب العليا لا يحق للنساء الوصول إليها بأي شكل من الأشكال، وخصوصًا في فترة حكم النظام الديكتاتوري، الذي يعتبر المرأة وسيلة للهو، وورقة للضغط على المتهمين، فهذا الاضطهاد يوحي بأساليب التمييز الاجتماعي ضد المرأة.

بالنسبة (للطاطران)، وهي رواية تحمل إسم محلة صغيرة تقع شرقي بغداد، وتحمل معها ذكريات المكان بالنسبة لشخصية محمود عيسى الشخصية الرئيسة في وكانت هذه المحلة هي الفضاء الذي وظفه عبد الستار ناصر لإبراز حبكة الرواية، التي دارت أحداثها بين حقيقة يعيشها محمود عيسى في منفاه وبين ذكريات الماضي في محلته القديمة محلة الطاطران مع عائلته وأصدقائه.

عند الخوض في تفاصيل الرواية يتبين لنا أن ثيمة الضياع هي التي طغت على أجوائها، فحياة محمود عيسى من بداية الرواية عند لجوئه إلى خارج الوطن، كان عبارة عن ضياع تعيشه الشخصية منذ أن صعد قطار الرحلة، وبعد أن غيّر وجهته إلى مدينة تيريستا في إيطاليا بعد إعجابه بفتاة شقراء، ثم إلى روما بعد أن خذلته، وحتى في روما إلتقى بتاجر إسمه روماري حذره من زوجته جيلولا، لكنه كان غير مكترث إلى وقع في شباكها.

إلى جانب هذه الأحداث، سلط عبد الستار ناصر الضوء على حياة المنفى وتأثيرها على الإنسان، بعد أن حصل على الحرية مقابل فقدان الوطن والأصدقاء.

تتشابه أساليب التمييز الاجتماعي في هذهِ الرواية مع ما تبين في رواية قشور الباذنجان، التي أعطت الحرية للرجل في ارتكابه للأخطاء، وهو ما يحدث في رواية الطاطران التي تعطي انطباعًا عن صورة الرجل بعد تحرره من القيود المجتمعية، مع إعطاء التبريرات التي أوصلت الشخصية إلى هذهِ الحالة، في حين رسم صورة المرأة على أنها شخصية متجردة من القيم والأخلاق ومتحررة من قيود العادات والتقاليد.

وهذا ما حدث كذلك في رواية (على فراش الموز) لكن بأحداث مختلفة، فهي من الروايات التي تجردت من الوضع السياسي والاقتصادي لتسلط الضوء على الذات الإنسانية بعيدًا عن المثالية، فعمل عبد الستار ناصر على إظهار الشخصيات بالوجه الذي يكون عليه الإنسان عندما تفقد الأنا العليا سيطرتها عليه لتسلمه إلى ذاته وإلى أهوائه، فشخصية رواية رشدي مثلت خروج الإنسان عن قيود المجتمع، فرواية شاب طائش ابتعد عن أهله وأصدقائه، وترك بلده وهاجر إلى العديد من البلدان متجولًا بين مدنها منها؛ موانئ بوخارست، وروما، ومدريد وغيرها، ليتحرر من تلك القيود ويمارس هواياته بحرية تامة، فجعل من النساء هواية ليتنقل بين هذه وتلك، ولينزلق على فراش الموز بين ملذاته وأهوائه، إلى أن التقى بكاثي التي اشترته بمالها وجمالها، فيعود منها خائبًا ويفكر في بإعادة الاستقرار إلى حياته، واستعادة جزء من كرامته برجوعه إلى أهله والى بلده، ليصطدم بكارثة اعتقاله بعد نشر قصته سقوط الرايخ الرابع (مصطلح ألماني يُطلق على الإمبراطور)، التي كتبها ضد النظام في إحدى دور النشر من دون علمه، وليواجه أشد أنواع التعذيب في السجون العراقية، ويخرج منها ويعود إلى تنقلاته بين البلدان تاركًا وراءه آلامه وذكرياته في بغداد.

كانت الفكرة تدور حول طيش الإنسان وتحرره من القيود المجتمعية التي جعلته يتنقل بين بلدان العالم باحثًا عن أهوائه وملذاته، لكن عبد الستار ناصر كان يسلط الضوء على شيء أكبر من الانفلات الذي يعيشه الفرد خارج بلده، كان يشير إلى سبب هذه الحالة التي يمر بها الإنسان، ألا وهو عدم احتواء الفرد من قبل المحيطين من الأسرة والمجتمع بأكمله، أدى به إلى البحث عن الطمأنينة والأمان في الخارج، فبسبب الأوضاع التي كان يعاني منها المجتمع العراقي في ظل الحكم الديكتاتوري، أدت بالعديد من الشباب الى الهجرة إلى خارج البلاد هربًا من بطش الحكومة وقساوتها، فحياة الطيش واللهو التي رستمها أحداث الرواية كانت مقتصرة على الشاب العربي فقط، لكنها كانت محظورة بالنسبة للنساء، بسبب القيود والعادات التي يكون تطبيقها مُقتصرًا على المرأة، ومن يخالفها ويخرج عن مسارها يواجه بالتهديد والقتل، فكانت النساء في البلدان التي عاش فيها رواية مختلفات عن النساء العراقيات في المحلة التي تجسدت فيها بعض أجزاء الرواية، فظهرت إحدى الشخصيات التي عملت على إرهاب النساء وتخويفهن، لمنع أي مظهر من مظاهر الحرية في المجتمع، فكان محسن شقيق رواية داعية متطرفًا، يهدد النساء السافرات بالتعنيف والقتل، وحتى بعد زواجه، طبق كل آرائه ومعتقداته المعقدة على زوجته، فكانت هذهِ الشخصية من الشخصيات التي تنادي بتعنيف النساء وتقييد حريتهن، فهذهِ الجزئية هي إحدى مظاهر التمييز الاجتماعي في الرواية.

**"ولا ندري إلى أي حزب ينتمي، فهو مسلم حدّ النخاع، لكنه يعيش بعقلية الجاهلية وله آراء سلفية حطمت سقف البيت الذي يعيش فيه، وعندما تزوج وكان في الثلاثين من العمر، راح يضرب زوجته بقفاز الملاكمة حتى تسقط مغمياً عليها، ولم تكن بالنسبة له غير كيس محشو بالقش."**

أما هدية حسين فشقت طريقًا مُختلفًا في كتاباتها، إلا أنها تلتقي مع عبد الستار ناصر في بعض من التفصيلات، لأنها خرجت من نفس البيئة الاجتماعية التي خرج منها زوجها، فرواياتها كانت تركز بنسبة كبيرة على قضايا النساء ذات التمييز الاجتماعي، ففي رواية (ما بعد الحب)، نجد دلالات مختلفة لكلمة واحدة، كل دلالة تأخذ إلى مغزى مختلف عن الآخر، فكلمة "لا" في اللغة تعني الرفض الذي هو حق من حقوق الإنسان، لكن دلالتها تختلف في زمن النظام البائد فهي تعني العصيان والتمرد على السلطة والذي يؤدي بحياة الإنسان إلى التهلكة، هكذا جسدت لنا الكاتبة هدية حسين انعدام حرية الرأي في تلك الفترة في روايتها هذه؛ فوظفت لنا هذه الجزئية عبر شخصية هدى عبد الباقي التي تحولت حياتها من حياة البساطة في مسكنها، مع عائلتها وعملها في المصنع، إلى هروبها بعيدًا عن وطنها وطلبها للهجرة بعيدًا عن محرقة السلطة، بعد إدلائها برأيها برفض الدكتاتور صدام حسين.

**"رحت أحكي لنادية عن ذلك اليوم المشؤوم الذي جعلونا فيه نزحف إلى صناديق الاقتراع لنكتب كلمة واحدة لا غير (نعم)، نقولها للرئيس الذي لا ينافسه أحد، ولأنني في لحظة باهرة من لحظات لا تتكرر، أردت أن أهزم الخوف الكامن في أعماقي، فقد قررت ان أقول ( لا)."**

ففكرة الخوف هي التي تدور حولها أحداث الرواية والآثار التي تتركها في مصير الإنسان، حيث تغيرت حياة هدى بسبب الخوف والهلع فتحولت إلى مهاجرة تبحث عن الأمان بعيدًا عن بلدها، حياتها قبل حادثة الرفض، كانت أشبه بحياة السكون، تعيش مع جدتها، تنتظر أملًا من حبيبها يوسف، تعمل في المصنع، وتستمع إلى حكايات صديقتها نادية، لكن هذا السكون كان بمثابة الهدوء ما قبل العاصفة، وبعدها فقدت بلدها وصديقتها نادية والأمل التي تنتظره من يوسف.

تردد يوسف في اتخاذ القرار بشأن ارتباطه بهدى، كان بسبب الخوف الذي ينتابه عند تفكيره في المستقبل المجهول في العراق آنذاك، الخوف الذي أدى به إلى خذلان هدى، فأرسل لها رسالة يعبر فيها عن تردده في فكرة اللحاق بها.

**"أعرف يا هدى أن البقاء في بغداد صعب علي، لكن الغربة أصعب، وأنا رجل توهمت في لحظة ما أن جذوري هشة، يمكن اقتلاعها بسهولة وزرعها في مكان آخر، لكن الوهم انجلى واكتشفت أن جذوري تضرب في الأرض عميقًا تغوص فيها وتشد قدمي، ولذلك بعد تفكير طويل، وجدت أن المقاومة على أرض الوطن هي الأوفر حظا لتغيير الواقع."**

أما شخصية موسى كاظم فكان لها الدور الأهم في الرواية لأنه يحمل في طياته العديد من الحكايات، كحكاية هروبه من العراق وتغيير اسمه خوفًا من السلطة، نتيجة الأحداث التي مرّ بها بعد وفاة أخيه في الحرب.

**"نعم لقد عدت خائبًا مهانًا من الكويت، وقتل أخي في اليوم الثالث للانتفاضة، مع إنه لم يكن يحمل السلاح، كان طالبًا أُعدم مع عشرين طالبًا في ساحة الجامعة، ثم هربت بهويته إذ أنني كنت مطلوبًا للسلطة، أبقيت على اسم أخي حفاظًا على ذكراه، ولم أعد منذ ذلك الوقت إلى اسمي الحقيقي."**

وحكايته مع هدى التي ترددت في قبول عرضه بالزواج منها خوفًا من الخذلان التي تعرضت له من قبل يوسف، وخوفًا من مستقبلها المجهول بعد انفصالها عن عائلتها، فشخصية موسى كاظم إلى جانب حكاياته، نجد له الأثر الكبير في جعل نهاية الرواية غير متوقعة لدى القراء. فأحداث الرواية تُسلط الضوء على الخوف الذي تعيشه النساء العراقيات في ظل الظروف التي يعيشها العراق، من خوف وذعر وانعدام حرية الرأي، حيث ركزت

الكاتبة في روايتها على هذه الفكرة، لما لها من ارتباط بالمعاناة التي تعاني منها النساء العراقيات، والذي يأخذنا إلى الرؤية التمييزية التي تسلط الضوء على القضايا التي تعاني منها النساء حول العالم، فثيمة الرواية تبين حكايات النساء البسيطة والمعاناة التي تعانيها في المجتمع والذي يأخذنا الى التمييز الاجتماعي بين الذكور والإناث، الذي يؤدي إلى قضايا شائكة تؤثر في النساء، سواء من الناحية الجسدية أو النفسية.

في رواية ( في الطريق اليهم)، انتقلت الكاتبة في هذه الرواية من النمط التقليدي في سرد الأحداث وتوظيف شخوصها إلى النمط الخيالي الذي يختلف من ناحية التقنيات السردية، انتقلت من أخذ الواقع كفضاء روائي إلى خيال يتجرد فيه المكان والزمان إلى اللامعقول، وبهذا تأخذ الرواية طابع الفانتازيا، فتتضح الكثير من الانتقالات من الواقع الدنيوي إلى عالم البرزخ، لتكون الشخصيات واقعية وخيالية تنتمي إلى عالم الأموات.

بالإضافة إلى تنقلاتها بين العالمين، تنقلت هدية حسين بين قصص الشخصيات التي شكلت المتن الحكائي للرواية، وبين الأحداث التي شهدها العراق بتوظيفها لشخصية الزعيم عبد الكريم قاسم بطلًا خفيًا في الرواية، لكن ليس بالحياة الواقعية، وإنما بعد انتقاله إلى عالم الأموات.

الثيمة الأساسية التي تدور حولها أحداث الرواية هي ثيمة أثر الموت في نفوس الناس، لتبرز لنا هذه الفكرة عن طريق سرد الأحداث على لسان شخصية ماتت منذ زمن بعيد، لتوضح لنا الكاتبة العالم الدنيوي ومقارنته بالعالم الآخر.

**"وإذا بي أمام فضاء واسع، بساط أخضر يمتد إلى ما لا نهاية، طيور من كل نوع لم أر مثلها من قبل، ذات ألوان براقة بين الذهبية والفضية، وأخرى تكتسي بريش أزرق وأخضر وأصفر، تغرد بأصوات تتناغم مع بعضها ممتزجة بخرير ماء يجري من اتجاهات عديدة، ثم رأيت أطفالاً بعمري وأصغر مني، وجوههم مشرقة، على أكتافهم نبتت أجنحة بيض شفافة يتقافزون كما الفراشات ويطيرون بارتفاعات واطئة ثم يحطون على العشب الأخضر الندي"**

فبمقارنة بين أرواح الأطفال وأرواح البالغين نجد الكثير من الاختلافات، حتى في طريقة سردها للأحداث، ففي مقبرة البالغين، يختلف إيقاع السرد، فنجد أرواحًا تصرخ تطلب الرحمة والغفران ممن تسلطت عليهم قبل انتقالها إلى هذهِ الحياة، وأرواح تئن وتصرخ خوفًا من عذاب القبر.

لكن الأمر يختلف في مقبرة الأطفال صغار صفحتهم بيضاء لم يلحقوا بالتلوث الدنيوي، أرواح تبكي لتطلب الرجوع إلى أهلها، ليس عليهم حساب ولا يصرخون من عذاب القبر.

تنقل لنا الكاتبة صورة العالم الآخر بتمثليها لهذه الرواية بشخصيات أرواح الموتى، لتصور لنا الحياة بعد الموت، وكيف يكون حال الإنسان في قبره في الليلة الأولى وكيف يعتاد الأمر بعدها.

**"لم يجاورني أحد، القبر الذي احتواني يقع بين النخلتين الوحيدتين في المقبرة من جهتها القريبة من البوابة، ويبعد عدة ياردات عن أقرب قبر، ولذلك كان الشعور بالوحشة صاعقاً في أول ليلة من فراق الدنيا ."**

فشخصية الطفلة أمل التي توفت منذ زمن بعيد، جعلتها الكاتبة العدسة التي تراقب شخصيات الرواية وتسرد أحداثها لنا، فتبدأ من عائلتها حيث تراقب والديها كيف تغيرت ملامحهما بمرور الزمن، وأختها صفية التي رافقتها روح أمل منذ صباها، وحتى بعد ولادتها لابنتها أمل الصغيرة.

وضحت لنا الساردة أثر الحرب في نفس المرأة بعد فقدان زوجها وضياع عمرها بانتظار رجوعه، حيث مثلت لنا هذه الجزئية بشخصية صفية التي تزوجت من مصطفى، وأنجبت منه أمل الصغيرة، ضاع عمرها بانتظاره وطال منزلها الفقر مع ابنتها أمل التي سأمت من حياة الفقر، وتزوجت ضابطًا يكبرها بالسن، وتخلت عن والدتها لتنتقل معه إلى حياة الرفاهية.

**"جاء الدور على أختي صفية فقد تلمست طريقها لتبحث عن إجابة شافية لفقدان زوجها مصطفى الذي اختفى أثره أثناء المعارك، بعد أن زرع في رحمها جنيناً، ولد في خضم الأيام الصعبة، وجاء الوليد بنتاً أطلقت عليها اسم (أمل) إحياء لذكراي.**

وقد عملت الكاتبة على نقل معاناة النساء إلى العالم الأدبي لتسليط الضوء على هذه الشريحة التي تعرضت إلى القهر والفقر بفقدان أزواجهنَّ، وتحملهنَّ مسؤولية الأطفال بعدهم، حيث وظفت الروائية العديد من الشخصيات التي كان لها دور رئيس ومنها فضلًا عن التي كانت دور ثانوي ساهم في حبكة الأحداث، فانقسمت الشخصيات بين شخصيات واقعية وبين شخصيات خيالية تنتمي إلى عالم الأموات؛ من هذه الشخصيات هي شخصية أمل وفراس الذي مات غرقا بسبب صديقه مهند، ووالد أمل الذي تسبب بموت أحد الأشخاص في يوم من الأيام عن طريق الخطأ، ووالدتها التي أهلكها الزمن، والجلاد سلوم الذي في ذمته العديد من الحسابات نتيجة تعذيبه الوحشي الذي طال العديد من الأبرياء.

**"أيها الأموات الأحياء لا مكان لهذا الرجل بيننا، إنه الجلاد سلّوم المسؤول عن شعبة التعذيب في أحد المخابئ السرية، اندفعت موجة هائلة من أرواح المغدورين في السجون والحروب، جاءت من مقابر أخرى، طاردت روح الجلاد سلوم فهامت في الفضاء ملعونة معذبة."**

ترتبط الفكرة الرئيسة لهذه الرواية بالرؤية التمييزية لما لها من تمثيل لوقائع الموت في نفوس الناس، وكيف تقبض الأرواح جراء الحروب، وكيف تعاني النساء في هذه الفترة، بعد فقدانها لزوجها أو أحد من عائلتها، لأن الرجال في العادة هم من يتحملون مسؤولية المعيشة، لكن بعدها عانت النساء من العديد من الأساليب التمييزية التي يستخدمها المجتمع للحد من حرية المرأة.

في رواية (زجاج الوقت) التي تشكلت أحداثها بين الحقيقة والخيال، دارت الحكاية بين خيال البطلة وحقيقة عيشها، فأخذتنا الكاتبة هدية حسين في رحلة للبحث في تفاصيل حياة البطلة هداية التي عاشت وحيدة بعد معاناتها مع أخيها المتسلط، فالفكرة الرئيسية التي تدور حولها أحداث الرواية هي الضياع والتشتت بين خيال مُزهر وحقيقة قاحلة لأن طبيعة الإنسان يولد حالمًا فيكبر وتكبر أحلامه معه، إلى أن يصطدم بواقع مرير مليئ بالعقبات والعراقيل التي تحول بينه وبين طموحاته. في هذه الرواية سلطت هدية حسين الضوء على معاناة النساء في المجتمع العراقي، ركزت على تسلط المجتمع ودوره الرئيسي في تحطيم أحلام النساء، فهداية بطلة الرواية، عانت الأمرين في سبيل إكمال دراستها، لأن النساء في بعض المجتمعات تعاني من الجهل بسبب عدم إكمالهن مسيرتهن التعليمية.

هكذا عاشت البطلة هداية بين حلمها الذي لم يكتمل مع يونس، وبين واقعها وهي وحيدة لا تملك شيئًا من الحب غير حبها لإبنة أخيها حنان.

حنان وحذام، اسمان لشخصية واحدة؛ الأول حقيقي منذ الولادة أطلقته هداية على إبنة أخيها، والآخر تتوهم به عند شرودها في الذاكرة، أسم يُطمئنها على حالة عمتها النفسية، والآخر يثير فيها الحيرة والاستغراب مما تعانيه العمة، أما هداية وضياعها بين العالمين فيجبرها على اختيار الحال الذي تعيش فيه، بين أن ترضخ لواقعها أو تستقر في عالمها عالم الخيال، وبذلك تنتقل من حياة الأصحاء إلى عداد المرضى النفسيين فكان الضياع حاضرًا حتى في أدق التفاصيل في هذه الرواية، بين شرود ذهني وبين إفاقة محملة بالمتاعب، واقعها لا يفرق كثيرًا عن واقع المرأة العراقية البسيطة التي تعاني من ظلم وقهر وتسلط في حياتها يؤدي بها إلى حياة بائسة خالية من أية أهداف، فتكون بذلك امرأة مبتورة الأجنحة مقيدة بعادات وتقاليد بالية.

سلطت هدية حسين الضوء على الضياع بكل تفاصيله، وربطته في نهاية الرواية بالضياع الذي يعم البلاد عند فقد الأمن الأمان، باختفاء شخصية هداية بأجواء غامضة، ورجوعها بهيئة منهكة، عيناها باهتتان وشعرها محلوق، وعليها آثار كدمات.

هذا المشهد يعيدنا إلى الوضع الذي يمر به العراق مع انتشار حالات خطف النساء وتدميرهن وارجاعهن بروح يملؤها الخوف، الأمر الذي يسبب الكثير من الآثار والأمراض النفسية، والذي يؤدي إلى فقدان حياتهن في أغلب الحالات، كما حصل مع هداية التي توفت في النهاية، تاركة وراءها حُذام مع كومة من الذكريات الحزينة، حيث كانت مشتتة بين حبها لعمتها وبين بغضها لأفعال أبيها التي أودت بحياة هداية إلى هذا الحال.

فالتشتت في الرواية كان حاضرًا في أغلب شخوص الرواية، منها شخصية يونس الذي واجه العديد من المصاعب في بداية حياته، ورافقه حتى الممات، بدءًا من ضياعه بين حبيبته هداية وبين قسوة أخيها وتسلطه وبين سطوة العشيرة في تلك المنطقة، فهرب من منطقته وترك وراءه أمه وحبيبته، وأكمل مسيرته بحثًا عن الاستقرار، بعيدًا عن ظلم العشيرة، فأسس أسرة بزواجه من حظوظ، وأصبح لديه ولدان، لكن سرعان ما أفسد القدر فرحته، فجابهه بالحرمان من أولاده، عاش طيلة حياته بهذا الحزن حتى الممات، وظلت روحه ضائعة تحوم حول من يحبهم.

وقد أرادت الكاتبة عند سردها لهذه التفصيلة في الرواية، الإشارة إلى تسلط أبناء القبيلة في القرارات الخاطئة التي تؤدي بحياة الإنسان إلى التهلكة.

ترتبط الفكرة الرئيسة لهذهِ الرواية مع الرؤية التمييزية في المجتمع، لأن شخصية هداية، الشخصية الرئيسة، عاشت الكثير من المعاناة مع عادات المجتمع وتقاليده التي تستهدف النساء بالدرجة الأساس، حيث حُرمت من حرية التعبير والاختيار في حياتها، فساهمت هذهِ الأساليب بالعبث في حياتها وتغيير مسارها.

وفي رواية (مطر الله) تدور الأحداث حول خطيئة الإنسان، حيث ركزت الكاتبة على الصوت الداخلي (المونولوج) للإنسان بعد وقوعه في شباك الخطيئة، إلى جانب تسليطها الضوء على التغيرات السياسية والاجتماعية التي طالت العراق آنذاك.

فالفكرة الرئيسية هي صوت الضمير، ومحاسبة النفس هي المسيطرة على أجواء النص، فعند الإصغاء للصوت الداخلي لشخصية البطل نجد أنه يعمل على جلد الذات باستذكار الخطايا والتعمق بها وصولًا إلى حقيقتها، فنفس الإنسان هي من تعرف الحقيقة كاملة دون زيف، إذ تمر أحداث الرواية عن طريق محاسبة النفس مما ارتكبته من خطايا بحق النساء والرجال في الحي.

شخصية السيد مهران الذي عانى في بداية حياته من مسألة إثبات نسبه لوالده، وتمرده على حقيقة إنه الابن غير الشرعي لوالدته جعلت منه إنسانًا ظالمًا، محتالًا، ومتحرشًا بالنساء، إنسانًا محملًا بالخطايا، فالحزن والأسى الذي طال هذهِ الشخصية بعد وقوعه في الخطأ، وبعد تأنيب الضمير الذي وقع فيه، بعد رجوعه في الذاكرة واسترجاعه للشخصيات التي ظلمها على مدار حياته؛ أدى به الى يكون إنسانًا مقيدًا بالماضي المظلم، يعاني من صوت الذاكرة الذي يُصرح بكل خطاياه، بدءً من ظلمه لإخيه صابر الذي قلل من قيمته ودمر شخصيته، وجعله حبيسًا للأحزان، لكن هذهِ الشخصية تمردت على هذا الواقع فتحول صابر من إنسان ذليل يتعرض للإهانة من قبل أخيه إلى شخص تهابه الناس بانضمامه إلى أحد الأحزاب السياسية.

وكذلك من الشخصيات التي عانت من ظلم السيد مهران، الرجل الذي ارتكب الخطيئة مع زوجة مهران، حيث أرغمه على تقمص دور المجنون مما أودى به إلى مستشفى المجانين، وفقد عقله نتيجة معاشرته للمرضى هناك، ونتيجة الصعقات الكهربائية من قبل الأطباء، وبعدها تمرد مهران على فعل زوجته وخانها مع العديد من النساء، وكذلك تحرشه بوردة التي تسكن مع أختها عفيفة.

التراكمات النفسية التي عاشتها الشخصية الرئيسة، كانت السبب في عدائية شخصية مهران، فكان يعوض النقص النفسي الداخلي بالاستقواء على النساء وفرض سيطرته عليهن، فكانت هذهِ التفاصيل تشير إلى أساليب التمييز الاجتماعي ضد النساء، بالهيمنة وفرض السيطرة والحد من الحرية في الحياة اليومية.

نساء يبكين على العتبات، تشتت، تشرد، وفقدان، هذه بقايا الحروب التي صورتها رواية (نساء العتبات) والتي تترك آثارًا نفسية وجسدية تتركها الحروب في نفوس النساء بعد انتهائها، فالعراق عانى من الكثير من الحروب التي مرت عليه، والتي خلفت الكثير من الثكالى والأرامل والأيتام، خلفت في كل نفس من هذه النفوس جروحًا عميقة لا تلتئم إلا برجوع من أخذتهم الحرب.

فثيمة رواية (نساء العتبات) هي آثار الحروب، لأن الرواية تضمنت معاناة المرأة التي فقدت أحدًا من عائلتها، مما ترك فيها آثارًا نفسية، أو تلك التي أفنت شبابها بانتظار من ظنته فقد أسيرًا في الحرب، فكرست شبابها بانتظار رجوعه.

تبدأ الحكاية بشخصية أمل التي فُقد والدها في الحرب الإيرانية، تمردت والانتظار الشخصية على الواقع الذي تعيشه والدتها، ورفضت أن تعيش حياة الفقر والانتظار مع أمها، فتزوجت ضابطًا يكبرها بالعمر، وانتقلت من حياة الفقر إلى حياة الترف، عاشت في قصر كبير، قبل أن تتعود على هذهِ الحياة، سقط النظام في العراق، وهربت إلى الأردن، عاشت حياة التشتت مع الخادمة جُمّار بعد اختفاء زوجها وتدهور الأوضاع، وبرجوعها إلى أرض الوطن، شاهدت ما حل ببلدها وبالقصر الذي تعيشه، فخلفت فيها أثرًا نفسيًا برجوعها إلى حياة الفقر من جديد، وفقدان والدتها، والخذلان الذي تعرضت له من قبل زوجها.

وشخصية والدة أمل التي فُقِد زوجها في الحرب وهي حامل بابنتها، أفنت شبابها في انتظاره، على الرغم من أنها تستطيع أن تكمل حياتها مع رجل آخر، لكن وفاءها لزوجها أرغمها على انتظاره.

وشخصية فطومة، المرأة البسيطة، بائعة الحليب والسجائر وأدوات الخياطة، عانت من فقدان عائلتها واحدًا تلو الآخر في الحرب، توفي ولدها الأول ولُقبت بأم الشهيد، وابنها الثاني حاول إكمال دراسته ولم يلتحق بالحرب، فأُعتبر متخاذلًا وتم إعدامه، وفطومة حالها حال الكثير من النساء اللواتي فقدنَ أولادهنَ جراء الحرب.

وشخصية أم عدنان التي فقدت زوجها عند وقوع صاروخ على منزلها، ثم بعد ذلك فقدت ابنها عدنان في حرب الكويت، مثلها مثل شخصية أم لؤي التي ترملت عندما قتل زوجها في الحرب مع إيران، هكذا كان حال المرأة في الحروب، عانت من القهر والحرمان والحسرة على من فقد في الحرب، تحملت الكثير على أمل انتهاء الحرب ورجوع من فقدوا فيها، صورت لنا هدية حسين تفاصيل الحرب كاملة من تدهور وتشتت، وفي وصفها الأخبار التي تناقلتها وسائل الإعلام لما تبعث من رعب وخوف في نفوس من يشاهدها، حتى وصلت إلى أعماق النساء العراقيات وإحساسهن بالمعاناة آنذاك.

فآثار الحروب كان لها حضور واضح في الرواية؛ من تهدم البنايات واحتراقها، وتشويه صورة العاصمة بعد أن كانت آمنة ومطمئنة حولتها الحرب إلى ساحة للصراع والقتال، وغير ذلك من تشتت الأسر التي كانت تسكن المناطق وتعيش فيها متآلفةً مع أقرانها.

أما من الناحية النفسية، فكان لها الأثر البارز في نفوس النساء، منهنَّ من فقدت عائلتها ومنهنَّ من فقدت مسكنها، فالرواية تنقل لنا حال هذهِ النساء عند اجتماعهنَّ على عتبات البيوت، يتبادلن الأحزان ويخفف على بعضهنَّ.

وعند النظر إلى ثيمة هذه الرواية نجد لها بُعدًا تمييزيًا، بتسليطها الضوء على حال المرأة العراقية عند الحروب، ونقل معاناتها وأحزانها عند الفقد، وكذلك حالها عند تحملها المسؤولية بعد فقدان زوجها أو استشهاده،

حيث تعمل النساء على تحمل كافة المسؤوليات من رعاية الأطفال وإدارة شؤون المنزل، والحفاظ على نفسها وعلى عائلتها من التشتت في ظل أوضاع البلد، فبهذهِ الأساليب تفقد النساء الجزء الأكبر من حقوقها في العمل والتعليم والحد من الحريات، وغيرها.

**الخاتمة:**

حاولت دراسة تمثلات التمييز الاجتماعي في الثيمة السردية، تسليط الضوء على كيفية تمثيل مظاهر التفضيل الاجتماعي وأبعاده وآثاره وما يتصل به من رؤية تمييزية وأدوار اجتماعية في الرواية العراقية، باختيار أعمال الروائي البارز عبد الستار ناصر، مع الاهتمام بالمشكلات التي تعاني منها النساء نتيجة لهذا التمييز وتأثيره في الثيمة الرئيسة في الرواية العراقية، والتي ترسخت جذوره في المجتمعات العربية وتحديدًا المجتمع العراقي، محور دراستنا،

**المصادر:**


١-الأدب والنسوية، بام موريس، ترجمة سهام عبد السلام، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
٢-تمثلات المرأة في الرواية العراقية والإيرانية، محمد ياسين الخفاجي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١٩م.
٣-كتابة الجسد في المسكوت عنه، جمال جاسم أمين، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد، ط١، ٢٠١٧م.
٤-كيف ندرس الأدب، نيكولاس مارش، ترجمة عبد الستار جبر عداي، دار دجلة الأكاديمية للنشر والتأليف والتوزيع والترجمة، بغداد، ط١، ٢٠٢٢م.
٥-اللغة والجندر، ماري تابلوت دار شهريار للنشر والتوزيع، البصرة، ط١، ٢٠٢٢م.
٦-المرأة العربية من العنف والتمييز إلى المشاركة السياسية، بورغدة وحيدة وآخرون، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.
٧-النساء والمعرفة والسلطة، أمل قرامي وآخرون، دار الرافدين للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١٩م.
٨-المفارقة في الرواية العراقية المعاصرة، ٢٠٠٣-٢٠١٣، راما عبد الجليل راضي الأوسي، جامعة القادسية، كلية التربية، ٢٠١٦.